تجربة بين معلمتين:
وقوف عند الحواف، ودخول في الذات

باسمة صوَّاف

تجربة بين معلمتين؛ فكرة حملت في ثناياها قلق الترحال وحُرقة المساءلة، مساءلة ذات تنكتب ويُكتب عنها. تنكشف لذاتها وتتعرى أمام الآخر؛ "لأن الآخرين لا يستطيعون أن يكتشفوا خصائصك وسلوكك إلا من خلال ملاحظتهم لك".

فتبادل الخبرات بين معلمتين من مدرستين مختلفتين يعني ملاحظة الآخر لك، والوقوف عند زوايا لم تكن لتتبينها لكونك في داخل الحدث، وهذه الفكرة توطد العلاقة بينك وبين الآخر، وتجعل لها معنى. وهذا ما جعلني أقف عند الأشياء الصغيرة، أفكر بها وأخترقها ولا أهملها.

فالتجربة في ديمومتها تجربة ما زالت في البداية، فالفكرة الجوهرية فيها هي التحاور بين خبرتين للتشارك في خبرة؛ مقاسمتُها أولاً، ونقدها ومساءلتها ثانية، ومحاورتها بنقيضها ثالثاً. وفي تحقيق ذلك اخترنا:

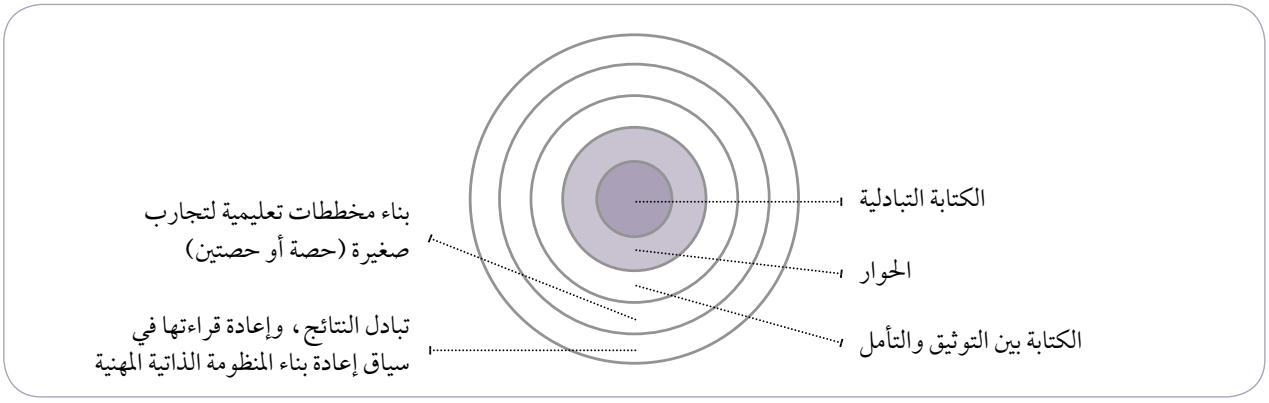

لذلك، عندما أمسكت دفتري لأول مرة فكرت كثيراً قبل الكتابة، وساءلت ذاتي: هل أكتب دون خجل؟ هل أكون صادقة في كل ما أكتب؟ وقررت في النهاية أن أخوض تجربة صادقة، لذلك كتبت ضمن سياق الحدث، وضمن تعاملي مع طالباتي؛ لأني أريد أن أعيد تشكيل ما تم تشكيله مسبقاً في مهنتي كمعلمة، وأقف عند الحواف لأكتشف ذاتي مرة ثانية.

لذلك، كانت بكر كتابتي تجربة تتحدث عن كتابة صورت لحظة ضعف بدَت مني أمام طالباتي، حيث عبَّرت أمامهن عن صرخة هلع بمجرد ظهور قط خلف النافذة، فتجرأت وكتبت الموقف بتفاصيله وما رافقه من أحاسيس.

فتولدت لديّ رغبة في الكتابة، وكنت ألجأ إلى دفتري لأكتب ما حدث معي وما حدث فيّ لأنه سيشاركني في قراءتها لاحقاً شخص آخر. ثم أترك ما كتبت لأعود مرة ثانية لقراءته، وأسائل ذاتي عما كتبت، فأكتشف المسافة التي بيني وبين طالباتي، فتتحول الكتابة لديّ من كتابة ترصد تجربة إلى كتابة ترصد الذات في كتابتها للتجربة.

وحدث أن اكتشفتُ طالبة تغش في الامتحان، كان بإمكاني سحب الكتاب منها بهدوء دون أن تلحظ الطالبات ذلك، لكنني صرخت بها وأخذت ورقتها، فعرفت الطالبات ما حدث. حينها شعرت باندفاعي، ولكن هذا الشعور جاء متأخراً، وشعرت بقسوتي عندما أهملتها أياماً عدة؛ لأني شعرت باستغفالها لي.

لذلك بقيت قلقة، أفكر بما حدث. وعندما ذهبت إلى مركز القطان التقيت زميلتي: أمل والباحث المشارك معنا في المشروع مالك الريماوي، وتحاورنا حول ما حدث معي، وما قمت به من ردة فعل غير موظفة بشكل تعليمي، فقالا لي: كان بإمكانك أن تتصرفي بطريقة أخرى، بحيث لا تشعري الطالبات بما حدث. حينها شعرت بالخجل، نعم، شعرت بذلك ولكنني أخفيت ذلك في لحظتها، ولكني كتبته في دفتري.

وعدت إلى البيت وأنا أفكر بالأمر، والقلق يتربص أفكاري، والمساءلة تذهلني وتثير لديّ تساؤلات كثيرة، فتولدت لديّ فكرة معالجة موضوع الغش في سياق تعليمي. هذه الفكرة حولت الحدث من حالة إلى تجربة بحثية، وأنشأت علاقة دافئة بيني وبين طالباتي، فقد شعرن بالاهتمام بهن أكثر، وبأنني أعالج، ولا أعاقب.

وبين الحوار والكتابة اقتنعت بأن كل حدث صفيّ فرصة تعلم وتفاعل مع طالباتي، وهذا دفعني لتصميم حصة تعلم لها صلة بالغش، حيث دخلت الصف وسألتهن عن صور الغش، وجرى حوار بيننا واقترحت الطالبات:

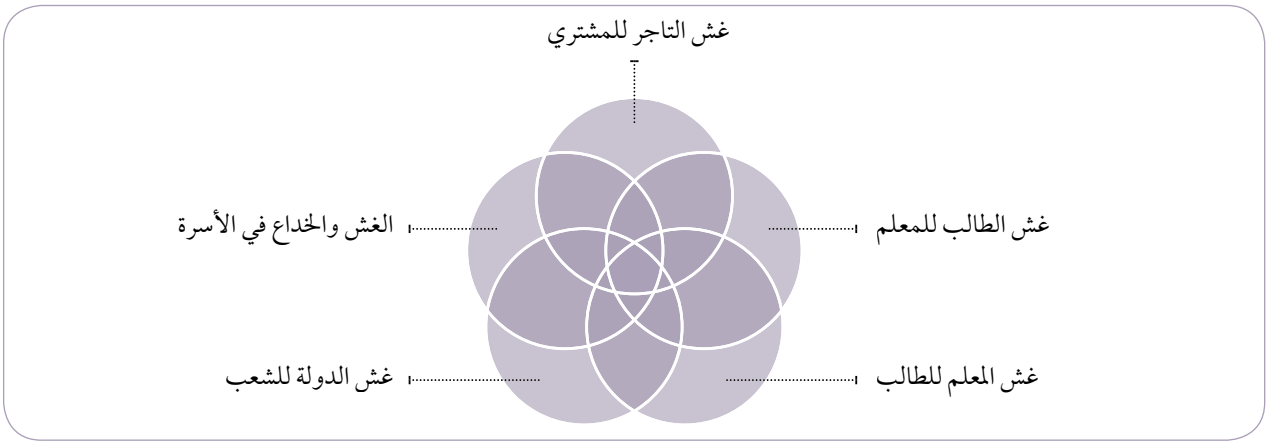

شعرت الطالبات في البداية بالقلق لأنهن سيكشفن عن أساليب الغش الذي يستخدمنه، ومع ذلك واصلن الكتابة.

المجموعة الأولى

المجموعة الثانية

المجموعة الثالثة

اختارت **المجموعة الأولى: (الغش والخداع في الأسرة)**
حيث تناولت الطالبات خداع الأزواج لبعضهما، خداعهما للأبناء، وخداع الأبناء للأهل.
توصلت الطالبات إلى أن الخداع والغش هو البديل عن الحوار والمكاشفة والصداقة والمواجهة.

المجموعة الثانية: (غش الدولة للشعب)
أشارت الطالبات إلى أن الغش متبادل بين الطرفين، وذلك لتعزيز مصالح خاصة، وهذا كله ينصب لصالح العدو في النهاية.

المجموعة الثالثة: (غش الطالبات في الامتحانات)
تحدثت الطالبات عن طرق الغش المتنوعة، كما ذكرن أسبابه.

وقد أظهرت كتابة الطالبات أن دوافع الغش حسب وجهة نظرهن هي:

- للتسلية والمتعة.
- لتحقيق الذات.
- لكسر النظام.

في ضوء كتابات الطالبات والحوار الذي جرى بيننا أصبحت أكثر إصراراً لمعرفة دوافع الطالبات ونظرتهن إلى النظام المدرسي. ولتطوير ما بدأناه كلفت مجموعة من الطالبات كان قد ظهر لديهن ميل (صحافي)، وخططن في هذا السياق لإجراء مقابلات مع مجموعة من المعلمات ومع مديرة المدرسة ومجموعة من الطالبات، وأجرين تحقيقاً مع الطالبات عن أسباب كسرهن للنظام المدرسي؛ سواء في الغش أم الزّي المدرسي.

وقد شعرت الطالبة رحاب بالفرح الشديد وهي تقوم هي وزميلاتها بهذه المقابلات، فقالت: شعرت بأنني صحافية، وتمنيت لو كان معي كاميرا وصورت. فطلبت منها استكمال الموضوع وأحضرت كاميرا. وعملت لقاء مع طالبات صفها حول المخالفات المدرسية. فكانت الأسئلة كالتالي:

1. لماذا تخالفين في لبس الزّي المدرسي؟ وما هو شعورك؟

فأجابت الطالبات: نكون مستمتعات؛ لأن ذلك يحدث انزعاجاً للمعلمات، وعندما تقول المعلمة: إن هذا العمل غير لائق وغير مقبول نسارع في عمله مطبقات المثل القائل: "كل ممنوع مرغوب". أما بالنسبة لشعورنا، فإنّا نشعر بالمتعة والتحدي وإبراز الذات. كذلك فإن لبس المريول القصير أجمل، ويظهر البنطال، أما إذا كان طويلاً فإننا نشعر بأننا كالعجوز التي تلبس العباءة. كما أننا نحب أن نلبس الملابس الجديدة، وهذا بنظرنا مقبول، ونشعر بأن المعلمات لا يتفهمن هذا الأمر، لذلك فإننا نتمسك بوجهة نظرنا مهما حصل.

أما بالنسبة لسبب الخروج من الصف، فأجابت الطالبات:

تغيير جوّ، ولنعرف ما يكون هناك من أخبار عن المعلمات وعن المدرسة

نخرج للأكل أيضاً

كما أننا نشعر بالمتعة والسرور، لأن الطالبات داخل الصف مضبوطات، ونحن نتصرف بحرية

وعندما نظرت إلى إجابات الطالبات أصابتني الدهشة؛ لأنني لم أتوقعها. كما أثارت انتباهي بعض الإجابات؛ مثل: للتسلية، لتحقيق الذات. فأدركت حينها أن الهدف من الغش ليس الحصول على المعلومة فقط بقدر ما هو كسر رتابة الامتحان، وإتاحة الطالبة لنفسها أن تسبح في فضاء المغامرة والمتعة، فتنسج بذلك قصة تكون هي بطلتها، فتعيد تشكيل ذاتها فتعززها. كما أن حصولها على علامة مرتفعة يزيد من هذا التعزيز. وتبحث الطالبات أيضاً عن طرق مختلفة لتعزيز الذات منها ما توصلت إليه الطالبة (رحاب) خلال عملها -الذي تم ذكره- وهو اختراق القوانين المدرسية ومخالفة الزّي المدرسي. وما هما إلا رفض وتذمر من قيود فرضها النظام التربوي، وكبل بها الطالب، ما أدخله في متاهات السؤال والتمرد والبحث عن لحظة عبور إلى ذات ملّت لغة الأمر والتنفيذ. فكان لا بدّ من خرقها والوصول إلى أسمى ما تطمح إليه النفس؛ وهو الشعور بالمغامرة وبالمتعة غير عابئ بانفعالات المعلم والمدير.

هذه الاستطلاعات جعلتني أرى جانباً كان مسدولاً بيني وبين طالباتي، وجعلتني أتفهمهن بشكل أفضل من السابق، بحيث أصبحت أرى الأمور من زوايا متعددة، وأفكر كيف أجعل من غرفة الصف مكاناً يحقق الذات والمتعة للطالبات؟!

وكيف أوظف قاعدة "كل ممنوع مرغوب". وبدأت بالخطوة الأولى، وهي: التقرب أكثر من الطالبات وتفهم مشاكلهن المدرسية. وما زلت بالخطوة الأولى وطالباتي يفاجئنني بأحداث مثيرة أجعل منها نشاطاً تختاره الطالبة لتحقق بذلك ولو جزءاً بسيطاً من ذاتها.

ولا تعني هذه الأنشطة بأنه تم القضاء على ظاهرة الغش لديهن. فقد حاولت إحدى الطالبات أن تغش بفتحها الكتاب أيضاً، فقلت لها: يبدو بأنك نسيت كتابك على الأرض، ضعيه داخل الحقيبة، فنظرت إليّ مندهشة، وخجلت من نفسها. فأنا تعمدت أن أفعل ذلك لأترك لها مجالاً لتفكر بطريقة أخرى.

ولولا الكتابة والحوار مع زميليّ لفعلت معها كما فعلت مع الطالبة في المرة السابقة.

وهذا يعني أن ما مررنا به من خبرة مشتركة أنا وطالباتي قد ترك أثره عليّ وعليهن، حيث زاد تفهمي لدوافعهن ومبرراتهن، فجعلني أكثر مرونة، وقرّب الطالبات مني وزاد الثقة بيننا، ما جعل الطالبة تتقبل ملاحظتي بخجل.

" وبما أن أي رواية تصبح رواية جديدة إذا ما تغير مكان حدوثها فقط "، فكذلك تجارب المعلمين وإن تشابهت لكل معلم فرادته، ولكل تجربة خصوصيتها، لأن المعلم يخوض كل يوم تجربة جديدة مع طلابه، وعليه أن يتجاوزها بذكاء وبطريقة تربوية سليمة، بحيث لا تترك أثراً سلبياً على طلابه.

فهذه التجربة وفرت فرصة للتفاعل بيني وبين زميلتي أمل في سياق خارج السياق المألوف، بعيداً عن ضغط العمل، وتجاوزاً لما هو مألوف. فكنت أشعر بالراحة وأنا أقرأ ملاحظاتها، فأفكر بما قمت به وأعيد صياغة الأشياء مرة ثانية.

وهذا المشروع (تجربة بين معلمتين) ما زال في بدايته، ومع ذلك أثمر هذه النتائج التي هي نفسها جزء من آلية العمل، وليست غاية في حد ذاتها. فالغاية الأخيرة هي قراءة المنظومة التربوية وتاريخها الرسمي من خلال التقاطها في الذات، وعملها اليومي، والمحاولة لتفكيك سطوتها بعد اكتشافها متلبسة.

باسمة صوَّاف
معلمة في مدرسة دير جرير وعضو في منتدى رام الله